ظاهرة الرواية الشرقية في الأدب الفرنسي

د . عبد الرحمن معلا
مدرس في كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة تشرين

في النصف الأول من القرن الثامن عشر ظهرت في فرنسا مجموعة كبيرة من الروايات تجري أحداثها في الشرق ويقول مؤلفوها إنها مترجمة عن العربية أو الفارسية أو التركية . بدأت هذه الظاهرة بترجمة لكتاب (ألف ليلة وليلة) قام بها المستشرق أنطوان غالان عام ١٧٠٤ . هذه الترجمة أدت إلى تغيير طبيعة وبنية الرواية الفرنسية وأدت بعد مرحلة الترجمات ومرحلة التقليد إلى مرحلة أصيلة برزت فيها روايات ظاهرها شرقي ومضمونها اجتماعي فيه نقد عنيف للنفاق والكذب في المجتمع الفرنسي . تميز في هذه المرحلة روائي فرنسي اسمه كلود كريبيون (١٧٠٧ - ١٧٧٧) في روايته التي ظهرت عام ١٧٤٢ وعنوانها (الصوفا) . كذلك استخدم الشرق لأغراض النقد الاجتماعي لدى مونتسكيو في كتاب (الرسائل الفارسية) ، ولأغراض فلسفية كما في روايات فولتير وخاصة رواية (الصادق) . وكل هذا لم يكن ليحدث على هذا الوجه لولا تأثير (ألف ليلة وليلة) .

في مجال سوسيولوجية الأدب يهتم الباحث بدراسة ظواهر معينة تحدد علاقة الأدب بالمجتمع ومدى تأثير كل منهما على الآخر . في بعض الأحيان تقوم بعض المؤلفات الأدبية الهامة بدفع المجتمع باتجاه معين ، وفي أحيان أخرى يتم العكس فيفرز المجتمع أدباً من نوع خاص يخدم غرضاً ما أو يعبر عن حاجة معينة . لايمكن مثلاً أن ننكر أهمية كتاب (العقد الاجتماعي) لجان جاك روسو في التمهيد للثورة الفرنسية . وكذلك نعرف أن الشعوب في عصور انحطاطها تفرز أدباً سطحياً حتى يأتي اليوم الذي يبرز فيه كتاب قيم يدفع بها في الاتجاه الأفضل أو يعبر عن استيقاظها .

والأدب ليس مجرد ترتيب بارع لكلام جميل كما يحلو للبعض أن يتصوره . انه التعبير الصادق عن مستوى الشعوب وأفكارها وآمالها كما انه صورة حية لواقعها خلال فترة من الزمن .ولعل أكثر الفنون الأدبية التصاقاً بالواقع وتعبيراً عنه فن القصة الذي لم يكن يتمتع بالتقدير الذي عرفته الفنون القديمة كالشعر والمسرح والذي احتل مع ذلك مرتبة الصدارة في عصرنا الحاضر اذ يكفي أن نذكر بأن معظم الحائزين على شهادة نوبل في الآداب هم من كتاب القصة .

وكما أن هناك تواريخ هامة وأحداثاً بارزة في مجال السياسة والدين والحروب ،كذلك هناك أحداث هامة في تاريخ تطور فن أدبي معين . ان ظهور كتاب هام قد يفوق أحياناً في تأثيره أحداثاً سياسية معاصرة لظهوره .

مرحلة الترجمة :

في عام ١٧٠٤ ظهر في باريس كتيب صغير يحوي الجزء الأول من ترجمة (ألف ليلة وليلة) ويروي حكايات الليالي الثلاثين الأولى . لم يكن انطوان غالان ، المختص باللغات العربية والفارسية والتركية والذي ترجم القرآن الى الفرنسية ، يتوقع لترجمته هذه النجاح الكبير الذي حظيت به والذي دفعه الى ترجمة بقية الأجزاء ليصل عام ١٧١٧ الى اثني عشر مجلداً . في نفس الفترة تقريباً وفي عام ١٧٠٧ على وجه التحديد قام مستشرق آخر هو بيتي دولاكروا بنشر كتاب تحت عنوان (ملكة فارس والوزراء) ويحكي قصة أمير شاب حكم عليه بالموت ظلماً وخلال أربعين يوماً تعمل الملكة على التعجيل بتنفيذ الحكم من خلال حكايات ترويها للملك للتأثير عليه في حين يحاول الوزراء تبرئة الشاب عن طريق سردهم لحكايات أخرى يختلف مغزاها عن حكايات الملكة وتقود الملك الى تبرئة الشاب المظلوم .

وفي عام ١٧١٠ بدأ نشر سلسلة جديدة من القصص بعنوان (ألف يوم ويوم) لبيتي دولا كروا الذي ادعى ان الكتاب منقول عن الفارسية ولكن تبين فيما بعد أنه مقتبس عن ترجمة تركية لكتاب عربي عنوانه (الفرج بعد الشدة) ويروي قصة الأميرة فاروقناز التي كانت ترفض الزواج خوفاً من غدر الرجال ولكن بعد أن سمعت عدداً كبيراً من الحكايات التي تؤكد صدق العشاق وتعلقهم بالحبيبة واخلاصهم تعدل رأيها وتتزوج[1]

من خلال هذه الأمثلة الثلاثة نلاحظ أن القارئ الفرنسي وعلى مدى أكثر من عشر سنوات كان يتلقى بشغف حكايات ألف ليلة وليلة أو ما يشابهها وهذا ما يكون له أكبر الأثر في نشوء وتطور فن القصة في فرنسا . وحتى ندرك أهمية الحدث علينا أن نذكر بواقع القصة قبل ترجمة ألف ليلة وليلة ثم ننتقل الى تأثير هذا الكتاب على مخيلة واسلوب كتاب القصة الفرنسيين .

٢ ــ الرواية الفرنسية قبل (ألف ليلة وليلة)

في العصر الكلاسيكي ، الذي استمر تأثيره حتى مطلع القرن الثامن عشر ، كان الأدب وقفاً على فنون تعتبر نبيلة وراقية في مقدمتها التراجيديا والشعر الملحمي والغنائي . كان كبار الأدباء آنذاك يحتقرون الرواية ويعتبرونها نوعاً مبتذلاً فيه خطر على الذوق وعلى الأخلاق . خطر على الذوق الأدبي لأنها لاتخضع لقواعد ثابتة ولقوانين صارمة هي ضمانة الذوق (كلنا يعرف على سبيل المثال ما كان يخضع له فن التراجيديا من قواعد كالوحدات الثلاث : وحدة المكان ووحدة الزمان ووحدة العمل) بل تبدو أكثر الأنواع الأدبية حرية وأقلها امتثالاً للقواعد كذلك هي في نظرهم خطر على الأخلاق لأنها تتحدث عن الحب ومظاهره مشوهة الصورة النبيلة التي تتميز بها الملحمة والتي تحكي سيرة أبطال يموتون ذوداً عن حياض الوطن ودفاعاً عن الدين والقيم المثلى في حين يموت أبطال الرواية في سبيل الحب كما في رواية (تريستان وايزيت) التي عرفتها أوروبا كلها في العصور الوسطى .

في مطلع القرن الثامن عشر اذن لم يكن هناك كثيرون يعترفون بأهمية وبفائدة الرواية ومع ذلك كثر قراء (ألف ليلة وليلة) بشكل يدعو للتساؤل عن سبب نجاح هذا النوع من الرواية . ويجيب على هذا التساؤل أحد كتاب تلك الفترة بقوله : «ان القصص الفرنسية القصيرة تتميز كلها بعقدة وخطة ونهاية ويتم الوصول اليها بشكل مدروس بحيث يدرك القارئ منذ البداية ما هي نهاية القصة ، في حين أن الحكايات الشرقية لاتهدف في أكثر الأحيان الا الى اثارة دهشة القارئ الذي يلاحظ أن أبسط الأحداث تؤدي الى أخطر النتائج .»[2]

كان القارئ الفرنسي يمل من قراءة الأحداث التي تؤدي الى نفس النهايات وفجأة وجد نفسه أمام حكايات لاتنتهي عن سندباد وقمر الزمان والأميرة بدور وغيرهم . حكايات طويلة ولكنها مليئة بالمفاجآت وبمزيج من الواقعية والخيال الخصب . حكايات لايخضع فيها الانسان لقوانين الطبيعة ، يتعامل مع الجن وينتقل في لمح البصر من مكان الى مكان . فما الذي جعل القارئ الفرنسي ، بعد مضي أكثر من قرن على المنهجية الديكارتية التي تعوّد عليها ، يحب مثل هذه الحكايات ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تقودنا الى عمق مسألة فن القصة وتأثيره على كل انسان . كلنا رأى مشاهد من أفلام سينمائية تتحدث عن (سوبرمان) . سوبرمان في أيامنا هذه ما هو الا مثال حديث لأبطال (ألف ليلة وليلة) . فبالرغم من عدم اعتقادنا بحقيقة الأحداث التي يعيشها مثل هذا البطل نتابع القصة بدافع من حلم الانسان القديم بالانعتاق من الجاذبية الأرضية وفي التغلب

على ضعفه أمام قوانين الطبيعة القاسية. وهل للانسان أمام حقيقة ضعفه الا خياله الخصب الذي يبعده عن هذه الحقيقة؟ لقد حلل فرويد وتلامذته الأحلام وبينوا ضرورتها لاتزان الانسان وقدرته على مواجهة الحياة . فهل نجد في الأحلام نفس المنطق الذي نخضع له في حياتنا اليومية؟ بالطبع لا . وحكايات (ألف ليلة وليلة) التي كانت شهرزاد ترويها ليلاً لشهريار (حتى اذا طلع الصباح سكتت عن الكلام المباح) ليست سوى مجموعة من الأحلام معظمها مدهش وجميل وان تخللها أحياناً بعض الكوابيس .

جاءت اذن (ألف ليلة وليلة) لتلبي حاجة القارئ الى الحلم وهي حاجة شبه غريزية إلا أنها حملت أيضاً فكرة جديدة وجريئة بالنسبة للعقلية الفرنسية آنذاك وهي فكرة الحب وعلاقته باللذة وبالرغبة . ويكفي أن نذكر أن مفهوم الحب حتى القرن الثامن عشر في فرنسا كان مفهوماً أقرب مايكون الى الحب الأفلاطوني أو الحب العذري: كلام كثير وتأوهات وآلام فراق نجدها في روايات القرن السابع عشر مثلاً وفي مسرحياته أيضاً. أما في حكايات ألف ليلة وليلة فللحب صورة أخرى : عشق وهيام وجرأة في اللقاءات التي تتم رغم كل العوائق ودور كبير للمرأة في تدبير اللقاءات السرية متعرضة بذلك لأعظم الأخطار دون أي شعور بالذنب . كذلك في ألف ليلة وليلة وصف لجمال المرأة ومفاتنها لم يكن موجوداً في القصة الفرنسية .

٣ ــ صورة جديدة للشرق

لقد حمل الشرق للقارئ الفرنسي آنذاك صورة جديدة ومحببة من العلاقة بين الرجل والمرأة عن طريق اظهار الحب كعاطفة طبيعية فيها سعادة لا تتوقف عند شقاء المحب الذي يكتفي بالتغزل بحبيبته عن بعد. وهنا لابد من التذكير بتأثير الكنيسة الغربية خلال قرون طويلة والتي جعلت من علاقة الحب مجرد علاقة انجاب وشجعت الرهبنة معتبرة إياها طريقاً الى الجنة. لقد ظهر في أواخر القرن السابع عشر بعض الفلاسفة الذين انتقدوا الديانة المسيحية التي لاتعترف بالطبيعة البشرية وبعواطف الانسان ولابد من الاعتراف بتأثير هؤلاء المفكرين في التحضير للثورة الأخلاقية التي سيعرفها القرن الثامن عشر . كذلك نذكر بأن السنوات الأولى من القرن الثامن عشر شهدت ترجمات للفيلسوف الانكليزي (Locke) الذي يدعو للاعتراف بعواطف الانسان وعدم كبتها نهائياً . هذا التيار الفلسفي تطور فيما بعد ليصل الى المادية التي عرف بها (ديدور) وفلاسفة غيره . كان ديكارت يقول: «أنا أفكر اذن أنا موجود» وفي القرن الثامن عشر يمكن تلخيص آراء معظم الفلاسفة بـ «أنا أحس اذن أنا موجود» .

من هنا يبدو لنا أن هناك أيضاً سبباً فلسفياً ساعد على حسن تقبل حكايات ألف ليلة وليلة وهو متعلق بتحرير الانسان من قسوة المجتمع وتأمين السعادة له عن طريق الاعتراف بطبيعته وعدم معارضتها كلياً . هذا التيار الفكري ظهر أول ماظهر في فرنسا ممهداً لثورة في النظرة الى الانسان في كل أوروبا .

٤ ــ مرحلة التقليد ومرحلة الأصالة :

بعد فترة الترجمات المباشرة لألف ليلة وليلة ولروايات مشابهة لها جاءت مرحلة ثانية هي مرحلة التقليد وظهرت الروايات التي يدعي مؤلفوها أنها مترجمة عن اللغة العربية أو اللغة الفارسية نذكر منها على سبيل المثال :

ــ مغامرات عبد الله بن حنيف عام ١٧١٣ .
ــ ألف ربع ساعة وربع ساعة عام ١٧١٥
ــ رحلات ومغامرات امراء سرنديب الثلاثة عام ١٧١٩
ــ سلاطين غوزارات أو أحلام الرجال المستيقظين عام ١٧٣٢
ــ حكاية أبناء علي باشا الثلاثة وبنات سيركو الثلاث عام ١٧٤٦ الخ .

في مرحلة ثالثة ظهر نوع جديد من الروايات ظاهره شرقي إلا أنه يحوي في الواقع دراسة ونقداً للمجتمع الفرنسي آنذاك ويقدم أفكاراً تتعلق بالفلسفة الجديدة . وقد تميز في هذه المرحلة كاتب يجد الفرنسيون في السنوات الأخيرة متعة في العودة إليه وفي دراسة مؤلفاته ، يدعى كلود كريبيون وعاش بين ١٧٠٧ و ١٧٧٧ . أما قصته الشهيرة والتي لاقت نجاحاً منقطع النظير بين ١٧٤٠ و ١٧٦٠ فعنوانها « الأريكة » Le sopha (نجد في العربية كلمة الصُّفَّة كما تستخدم كلمة صوفا في العامة) . تجري أحداث القصة في مدينة أغرا الهندية (وهي المدينة المسلمة التي تحوي تاج محل) في بلاط سلطان يدعى شابهام وهو ابن شهريار ويحب الحكايات مثله يأتي شخص اسمه ابن طاهر أبو فرايقي

ليحكي له قصة الأريكة العجيبة التي يمكنها أن ترى ما يحدث بقربها وعليها لأن فيها روحاً سجينة بفعل التقمص لا تتحرر إلا حين يلتقي على الأريكة امرأة ورجل شريفان يعرفان الحب لأول مرة . تنتقل الأريكة من بيت لبيت ومن غرفة نوم لغرفة نوم وفي كل مرة تنتظر الروح السجينة أن تعتق استناداً إلى مظاهر الشرف والنقاء ولكن الحقيقة تكون عكس ذلك نتعرف في البداية إلى شخصية فاطمة التي تبدو مثالية ولكن سرعان ما نكتشف أن لها عشيقين في نفس الوقت أحدهما العبد داحس والآخر رجل دين شاب . ثم نكتشف أمينة وعشاقها عبد اللطيف والعبد مسعود وتاجر فارسي غني . ثم زليخة ومخلص وغيرهما . وهكذا ينقلنا المؤلف إلى خبايا المجتمع الفرنسي ويعرفنا إلى نفاق النساء والرجال إلى أن تنتهي القصة بلقاء مراهقين بريئين وانعتاق الروح السجينة .

هذه الرواية التي لاقت نجاحاً كبيراً جداً دفعت بالسلطات إلى مصادرة الكتاب ونفي مؤلفه لعدة شهور . والسبب في ذلك هو كون الرواية تتحدث عن حكايات معروفة آنذاك لشخصيات بارزة في المجتمع والدين والدولة . وتبدو خطورة الرواية أيضاً في التلميح إلى أحداث تمس الملك نفسه والعائلة المالكة . وهنا لا بد من التذكير بحياة لويس الخامس عشر الذي حكم فرنسا بين ١٧٢٣ و ١٧٧٤ . لقد اشتهر الملك بمغامراته النسائية ومجونه وكان وزيراه اللذان تعاقبا على الحكم الكاردينال ديبوا والكاردينال دي فلوري متواطئين معه في هذا المجال . يروي المؤرخون حكايات كثيرة عن محظياته اللواتي تعددن ولعبن دوراً هاماً في حياة فرنسا السياسية والاجتماعية وحتى الفكرية أمثال : مدام دو باري ، مدام دي شاتورو ، مدام دي بومبادور الخ ... حتى أن أحد المؤرخين ذهب إلى القول : « أن تغيير المحظية كان كتغيير الوزارة » إذ يعمل أفراد الحاشية والنبلاء ورجال الدين على ارضاء المحظية الجديدة مستفيدين من تأثيرها على الملك للحصول على ما يريدون . يحكي أيضاً أن الملك كان يعطي عشيقاته أسماء شرقية تذكر بألف ليلة وليلة وهذا ما يفسر سر نجاح رواية كريبيون وسر العقوبة التي تعرض لها .

إذن نجحت رواية الأريكة لواقعية الأحداث التي تصورها تحت ستار من الغرابة في البيئة وفي الأسماء. لكنها نجحت بفضل اسلوب متميز ساخر يفسح المجال للجرأة في الحديث عن موضوعات خطيرة. ان القارئ يضحك كثيراً وهو يقرأ هذه الرواية ومن قرأ لفولتير أو لبرناردشو يدرك أهمية النكتة اللاذعة في معالجة أمور يصعب الخوض فيها بالأسلوب العادي . في هذا المجال تميز كريبيون في روايته هذه وفي مؤلفاته الأخرى مما يضعه في مقدمة الكتاب الذين صنعوا ما يسمى بالظرف الفرنسي (Esprit français) .

٥ ــ نتائج ترجمة (ألف ليلة وليلة)

لاحظنا اذن المراحل التي مرت بها الرواية الفرنسية بعد ترجمة (ألف ليلة وليلة) والتي وصلت مع كريبيون الى مرحلة يعتز بها الفرنسيون هي مرحلة الانتقال من التقليد الى الأصالة. هذه المرحلة برزت بين ١٧٣٠ و ١٧٦٠ وأدت الى نتائج عديدة أهمها :

١ ــ نظراً لنجاح روايات كريبتون قام بعض الفلاسفة آنذاك بتقليده وعلى رأسهم ديدور الذي كتب عام ١٧٤٨ رواية أسماها (الحلى الثرثارة) وتحكي قصة «جواهر» بدأت فجأة تتكلم وتفضح النساء اللواتي تحملنها أما أسماء أبطالها فهي فاطمة وزبيدة وزليخة وأمينة وعلي بك وسليم الخ ...

كذلك كتب جان جاك روسو في هذا المجال عام ١٧٥٨ حكاية عنوانها (الملكة الغريبة الأطوار) ولم يكن فخوراً بها لأنها لم تكن من خيرة مؤلفاته .

أما فولتير فقد استفاد من الظاهرة ليدفعها بالاتجاه الفلسفي في عدة قصص شرقية أهمها قصة Zadig أي الصادق . وقد كان مونتسكيو السباق الى استخدام الشرق لغاية اجتماعية وفلسفية من خلال كتابه المشهور «الرسائل الفارسية» والذي يروي حكاية رجلين قدما من بلاد فارس ليكتشف مجتمعاً فيه تناقضات كثيرة . كتب مونتسكيو الرسائل الفارسية عام ١٧٢١ وتأثر حتماً بترجمة ألف ليلة وليلة وبالكتب التي قلدتها .

٢ ــ مهدت الرواية الشرقية لظهور القصة الاجتماعية التي تدرس حالة المجتمع وتبرز عيوبه وتقدم الحلول لمعالجة الأخطاء. في هذا

المجال نجد في القرن التالي أن بلزاك مثلاً أو فيكتور هيغو قد وصلا الى القمة في مجال الرواية الاجتماعية ولكنهما استفادا من نشوئها وتطورهاخلال القرن السابق .

٣ ــ بدأ الاهتمام الأكبر بالدراسات النفسية وبتحليل العواطف . المعروف أن الجزء الأخير من رواية (الأريكة) يحوي تحليلاً عميقاً لظاهرة الرغبة عند المراهقين من الناحية النفسية الواقعية والمعروف أن الرواية النفسية لم تأخذ أبعادها الكبيرة الا بعد صدور مؤلفات فرويد في مطلع هذا القرن .

٤ ــ مهدت الرواية الشرقية لتيارين تنازعا الرواية الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر أحدهما اباحي يبدو من خلال مؤلفات لاكلو Laclos والمركيز دو ساد صاحب فكرة السادية الشهيرة ، والآخر هو تيار الروايات الخرافية (Fantastique) التي تميز بها جاك كازوت الفرنسي ممهداً بذلك للكاتب الأمريكي المشهور في هذا المجال ادغار ألان بو .

نلاحظ من كل ما سبق أن ترجمة (ألف ليلة وليلة) عام ١٧٠٤ لم يكن حدثاً عادياً خاصة وأنها أول ترجمة أوروبية اذ سبقت بأكثر من قرن الترجمات الانكليزية وبأكثر من قرنين الترجمة الألمانية الشهيرة التي قام بها ليتمان بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٨ . ونستنتج من ذلك أن تأثير (ألف ليلة وليلة) في معظم الآداب الغربية تم عن طريق اكتشاف القصة الفرنسية للشرق واستخدام هذا الشرق لأغراض النقد الاجتماعي .

(١) ــ من بين الكتب التي ظهرت فيما بعد نذكر : ألف أمسية وأمسية (١٧٣٢)
ألف ساعة وساعة (١٧٣٣)
ألف تفاهة وتفاهة (١٧٤٢)
ألف حماقة وحماقة (١٧٧١)
خمسمئة صباح ونصف ، حكايات سورية (١٧٥٦)

P. Martino: L'Orient dans la littérature Française, P. 255

أهم مراجـع البحث :

1- M.L. Dufrenoy: L'Orient Romanesque en France, 1704-1789. Montréal, 1947.

2- R. Etiemble: L'Orient Philosophique au XVIII$_e$ Siècle. Cours; Paris 1956.

3- A. Le Breton: Le Roman au XVIII$_e$ Siècle Paris, 1898.

4- P. Nartino: L'Orient dans la littérature française au XVII$_e$ et au XVIII$_e$ Siècles. Thèse, Paris, 1906.

5- A. Moalla: Crébillon fils. Thése, Dijon, 1976.